مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الأمازيغ ضمن الأسطورة[1] الاستعمارية الفرنسية

عبد الفتاح أيت أدري
باحث في التاريخ المعاصر والراهن
مدرس بوزارة التربية الوطنية
المملكة المغربية

مُلَخّص

اعتمد الاستعمار الفرنسي بموازاة توسعاته العسكرية على العلم والمعرفة، وفي هذا الصدد صاغ "باحثوه الاستعماريون" عدة نظريات، هدفها الأساسي هو تسهيل عملية الاحتلال. ومن ضمن البلدان التي انكبوا على التعرف عليها ودراسة مختلف التشكيلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية له، نجد المغرب، حيث اهتموا به منذ احتلاله للجزائر سنة ١٨٣٠، وأصبح هذا الاهتمام مهيكلاً ومؤسساتيًا ابتداءً من سنة ١٩٠٢ مع تأسيس البعثة العلمية بطنجة، وهو ما تواصل خلال مرحلة احتلال البلد، ومن ضمن ما ركزوا عليه في أبحاثهم ودراساتهم العنصر الأمازيغي، الذي نسجوا حوله العديد من الأساطير تخص تاريخهم ولغاتهم وديانتهم ومختلف التسميات التي عرفوا بها وأصولهم. تستهدف هذه الدراسة إبراز جوانب تاريخية ولسنية واجتماعية مرتبطة بتاريخ الأمازيغ بالمغرب، والوقوف عند مختلف التصورات الاستعمارية المبنية حولهم، والكشف عن خلفياتها الأيديولوجية، وما استهدفته من رغبة في الفهم العلمي من أجل الضبط السياسي والتحكم الإداري والعسكري. وهو ما سنحاول تبيان خطوطه العريضة ضمن هذا المقال، معتمدين على مجموعة من المراجع والدراسات العربية والفرنسية، والتي درست تاريخ المغرب خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، معتمدين على منهجين: المنهج التاريخي والمنهج الوصفي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٥ أبريل ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ٢٣ مايو ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الأمازيغ؛ البربر؛ المغرب؛ الأسطورة؛ الاستعمار

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.333090

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الفتاح أيت أدري. "الأمازيغ ضمن الأسطورة الاستعمارية الفرنسية".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الستون؛ يونيو ٢٠٢٣. ص ١٧٥ – ١٨٤.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: aitdraabdelfatah@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

ارتبط ميلاد العلوم الإنسانية بالمغرب بالظاهرة الإمبريالية، وظهرت نظريات تؤيد الاستعمار وتبرره علميا، وتجند العديد من الباحثين والرحالة من أجل تسهيل عملية الغزو العسكري والتمهيد له، وذلك عبر إنجاز مجموعة من الأبحاث والدراسات الهادفة إلى فهم ثقافة وتاريخ المغرب وتركيبته العرقية وتنظيماته الاجتماعية بشكل يسهم في إخضاعه والتحكم فيه. ومن أهم العناصر العرقية التي أثارت انتباه الفرنسيين منذ تواجدهم بالجزائر سنة ١٨٣٠ العنصر الأمازيغي، الذي كانوا يجهلون عنه الشيء الكثير. لذا فإن الدارسين الفرنسيين انطلاقًا من الجزائر في البداية وخلال عمليات الاختراق العلمي والتوغل العسكري للمغرب فيما بعد، سيعملون على تخصيص مؤلفات ومونوغرافيات ودراسات حول الأمازيغ، وشكلوا بخصوصهم خطابًا أيديولوجيًا أسطوريًا مروجين للعديد من الأفكار التي اعتبروها "حقائق"، معتمدين على العديد من المؤسسات المعرفية الاستعمارية من أبرزها "المدرسة العليا للغة العربية واللهجات البربرية" و"معهد الدراسات المغربية". ويمكن القول إن هذه الأبحاث التي قامت بها مؤسسات الحماية وعلماؤها، قد شكلت منظورا إيديولوجيا للتاريخ والمجتمع المغربي، حيث يلاحظ تكرار نفس المواضيع والحضور الدائم لبعض الأساطير، وفيما يخص موضوع الأمازيغ ركز الخطاب الكولونيالي على خمسة مواضيع أساسية وهي التسمية والتاريخ واللغة والدين والأصل.

فما هي أهم الخطوط العريضة للخطاب الاستعماري الفرنسي حول الأمازيغ بالمغرب؟

أولاً: التسمية

أُطلقت على سكان شمال إفريقيا تسميات متعددة ومتنوعة، اختلف حولها الباحثون، فمنهم من سماهم بالبربر les Berbères وآخرون سموهم بالأمازيغ Imazighnesأو الموريين Maures أو الأفارقة أو الليبيين أو الجيتوليون Gaituloi أوالنوميديين Numides [٢].لكن ظل اسم البربر مقترنا بهم أكثر من الأسماء الأخرى، وأثار هذا المصطلح في حد ذاته نقاشات كثيرة ومتشنجة في الماضي وفي الراهن[٣]، فمنهم من ذهب إلى أن أصله يرجع إلى اليونان الذين كانوا يسمون كل الأجانب بباربروس Barbaros وأخذه عنهم الرومان وأطلقوه على ساكنة شمال إفريقيا الذين هم خارج نطاق سيطرة الرومان، ويرى "جورج هنري بوسكي" Georges Henri Bousquet)أن "الكلمة من أصل لاتيني وتعني الشخص الذي لا ثقافة له، والذي ينتمي إلى مجموعة مختلفة من الشعوب المتخلفة التي كانت تعيش خارج نطاق روما، لكن البربر لا يسمون أنفسهم بهذا الاسم وإنما يسمون أنفسهم بالأمازيغ أي الأحرار"[٤].

ولقد حافظ العرب على هذا الاسم كما استعمله الروم واستعملوا كلمة "بربر" بمعنى اللجلجة وحاولوا البحث لها عن جذور لغوية في معجمهم، واختلفوا في دلالتها وقاموا بكتابة قصص في ذلك، فمثلا ابن خلدون يرى بأن أول من أطلق اسم البربر هو افريقيش بن قيس بن صيفي، حينما غزا شمال إفريقيا، فوصف به جماعة من القوم تتكلم كلاما أعجميا مبهما غير واضح حيث تختلط فيه الأصوات، وفي هذا الصدد يقول: "إن أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وأفريقية، وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والأمصار، وباسمه زعموا سميت أفريقية لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال: ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر. والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة. ومنه يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة"[٥]. ونفس الرواية وردت عند ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان[٦]. أما الحسن الوزان فيورد قصة أخرى مفادها:" يحكى أن الملك أفريقيش، عندما غلبه الأشوريون أو الاثيوبيون، هرب إلى مصر، ولما وجد نفسه مطاردا عاجزا عن مقاومة العدو، استشار قومه في أي سبيل يسلكونه للنجاة فأجابوه صارخين "البربر" أي إلى الصحراء"[٧]. ويرى "كابرييل كامبس" Gabriel (Camps) أن الاسم الحقيقي للبربر هم من الأصل MZG وMZK الذي نجده في كلمات MAZICES الرومانية و MASCYCES الإغريقية[٨]، وهي تقابل أمازيغ والتي تعني الإنسان الحر أو النبيل، ويؤكد أن هذا

الاسم هو الاسم الذي يقبل به كل سكان شمال إفريقيا كاسم محلي لهم[٩]. وبهذا المعنى – أي النبيل- وردت دلالة "مازيغ" عند الحسن الوزان عند حديثه عن لغة الأمازيغ "إن هذه الشعوب الخمسة المنقسمة إلى مئات السلالات وآلاف المساكن تستعمل لغة واحدة يطلق عليها اسم 'أوال أمزيغ' أي الكلام النبيل".[١٠] ويعارض الأستاذ محمد زنيبر كلام "كامبس" مؤكدا خلال تناوله لمادة "بربر" في معلمة المغرب أن اسم 'أمازيغ' لم يُنعت به سكان شمال إفريقيا إلا خلال القرن العشرين[١١].

ثانيًا: الأصل

يطرح البحث عن أصل الأمازيغ صعوبات كثيرة، مرتبطة من جهة بغياب المادة المصدرية الكافية، ومن جهة أخرى مرتبطة بتعدد الروايات التي تحمل في مجملها طابعا أسطوريا. ف"هيرودوت" (Hérodote) ينسبهم إلى الطرواديينTroyens الذين طردوا من طروادة ما بين القرنين ١١ و١٢ قبل الميلاد[١٢]. أما "سالوست"(Salluste) فيعتقد أن سكان شمال إفريقيا الأوائل هم الجيتوليين والليبيون، وأن "هيرقل" (Hercule) قاد إلى المنطقة عناصر ميديةMédes وأرمينيةArméniens وفارسية Perses انطلاقًا من إسبانيا فاختلطوا مع الليبيين والجيتوليين[١٣]. أما "سترابون" (Strabon) من جهته فينصبهم إلى الهنود، وأن "هيرقليس" (Héraklès) هم من قادهم إلى المنطقة[١٤].

نفس التضارب في الآراء وإيراد القصص الأسطورية نجده عند المؤرخين المسلمين، فابن خلدون يستعرض في نص طويل كل الروايات المرتبطة بأصول البربر، من قبيل:

- أنهم من ولد إبراهيم من ابنه نقشان.
- أصلهم من اليمن أو من فلسطين.
- البربر من قبائل غسان الذين تفرقوا بعد سيل العرم
- البربر مشكلون من قبائل كثيرة مثل حمير والعماليق وكنعان وقريش[١٥].

إن تعدد هذه الروايات قد دفع ابن خلدون إلى نقدها وانتقاد بعض الحدود التي تضمنتها قائلاً: "وأما القول بأنهم من ولد جالوت أو العماليق، وأنهم نقلوا من ديار الشام وانتقلوا فقول ساقط، يكاد يكون من أحاديث خرافة، إذ مثل هذه الأمة المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور، والأمازيغ معروفون في بلادهم وأقاليمهم متحيزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام. فما الذي يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات في شأن أوليتهم. ويحتاج إلى مثله في كل جيل وأمة من العجم والعرب."[١٦]، ليخلص إلى:" والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدم في أنساب الخليقة، وأنّ اسم أبيهم مازيغ"[١٧].

اهتمت الإثنوغرافيا الكولونيالية ببحث أصول الأمازيغ، وأسالت هذه الإشكالية الكثير من المداد، وشكلت موضوع رهان لما تنطوي عليه من أهمية في إنجاح سياسة إدماج "العنصر الأمازيغي" التي راهنت عليها السلطات الاستعمارية لتغيير معالم الهوية الوطنية. وروجت معظمها لفكرة الأصل الأوروبي للأمازيغ، واعتبروها حقيقة تاريخية، فالأمازيغ والغاليون أجداد الفرنسيين يشكلون جنسا واحدا، وإذا كانوا قد اتحدوا مع الفرنسيين القدامى في إطار الإمبراطورية الرومانية فيتعين عليهم أن يتحدوا مع الفرنسيين في الحاضر، فالأمازيغ فرنسيون من ناحية الجنس وقد بقي لهم أن يكونوا فرنسيين من ناحية اللغة والثقافة. وكان الهدف من وراء الترويج لأطروحة الأصل الأوربي، تسهيل إدماج الأمازيغ في المجموعة الفرنسية، وتفادي مقاومتهم للاستعمار، لهذا أصدرت السلطات الاستعمارية تعليمات إلى المؤسسات العلمية الفرنسية بإفريقيا الشمالية من أجل إبراز الأصل الأوربي للأمازيغ واعتبار العرب مجرد محتلين يجب طردهم والتخلص منهم[١٨].

يقول عبد الله العروي: "إن النظرية القائلة إن أصل الأمازيغ من أوربا، روجها عسكريون وموظفون فرنسيون" ويضيف قائلا: "كتب الجنرال فيدري سنة ١٨٦٧: إن الأمازيغ أقارب الأوربيين القدامى، ونشر الجنرال بريمون، الذي مثل المصالح الفرنسية في الحجاز أثناء الحرب العالمية الثانية، سنة ١٩٣٨ كتابا بعنوان "بربر

وعرب بلاد الأمازيغ بلاد أوربية"، هذه نظرية متفرعة في الحقيقة عن سياسة إدماج إفريقيا الشمالية في المجموعة الفرنسية (...) كان الكل يعتقد آنذاك أن الإدماج لا ينجح إلا إذا كان الأمازيغ و الأوربيون ينتمون إلى أصل واحد أما إذا كان الأمازيغ من جنس غير أوربي فيستحيل عليهم استيعاب الحضارة الغربية".[١٩] إذن فحسب العروي كان المستعمر الفرنسي يراهن على تحييد مقاومة الأمازيغ، وبدا له أن نشر فكرة الأصل الأوربي للبربر يمكن لها أن تُسهِم في تقريب الأمازيغ من الفرنسيين وتوقفهم عن المقاومة. لكن الواقع أثبت عكس ذلك من خلال المقاومة العنيفة التي خاضها الأمازيغ ضد الفرنسيين.

إن المواقف حول أصول الأمازيغ اتجهت اتجاهات مختلفة، وبرز موقفان أساسيان: أصحاب الأصل المشرقي، وأصحاب الأصل الأوربي. من جهتي أرى أن الأبحاث حول هذه النقطة يلزمها الانطلاق من المنطقة واستعمال كل الوسائل الممكنة من أركيولوجيا، وتحاليل الحمض النووي لأهداف علمية محضة.

ثالثًا: اللغة

إذا كان التوظيف الإيديولوجي لحقول معرفية عدة مثل الأنثروبولجيا وعلم الإحاثة[٢٠] والتاريخ والأركيولوجيا قد بلغ أعلى درجاته مع الحركة الاستعمارية التوسعية في بداية القرن العشرين، فإن حقل اللغة حظي بالأمس كما باليوم بالحيز الأكبر من الاهتمام وذلك بهدف تمرير قناعات إيديولوجية طالما حكمت القوى الاستعمارية في تلك الفترة.

اهتم الفرنسيون بدراسة اللهجات الأمازيغية قبل احتلال الجزائر، فأول معجم للأمازيغية ألفه "فونتور دي باغادي" (Venture de Paradis) سنة ١٧٩٠ تحت اسم " نحو ومعجم مختصر للغة الأمازيغية" (Grammaire et Dictionnaire abrégés de la langue berbère)، لكنه لم يخرج إلى الوجود إلا في سنة ١٨٤٤. لكن بعد احتلالهم للجزائر والمغرب، عرفت الدراسات الأمازيغية تطورا ملحوظا، حيث درست هذه اللغة بداية من قبل العسكريين أمثال "هونوتو"، ثم من قبل المبشرين مثل "دوفوكو"، وأخيرا من قبل الجامعيين مثل "روني باسي" (René Basset)وابنيه "هنري باسي"(Henri) (Basset و"أندري باسي" (André Basset) ، بالإضافة إلى"إميل لاووست" (Émile Laoust).وهكذا تناسلت العديد من الدراسات التي اهتمت بالنحو و الأدب والصرف والتحويل وألفت معاجم كثيرة نشير إلى بعضها:

René Basset, notes lexicographie Berbère, journal Asiatique, avril-mai-juin, 1883.
René Basset, étude sur la zenatia du Mzab, publication de l'école des lettres d'Alger, Bulletin de Correspondance Africaine, Edition Ernest Leroux, Paris, 1893.
Edmond Destaing, dictionnaire Français Berbère (dialecte des bennisnous), 2v, Ernest Leroux, Paris, 1907-1911.
Emile Laoust, étude sur le dialecte Berbère du Chenoua comparé avec ceux des Beni-Menacer et des Beni-Salah, publication de l'école des lettres d'Alger, Bulletin de Correspondance Africaine, Edition Ernest Leroux, Paris, 1912.
Emile Laoust, mots et choses berbère. Notes de linguistique et d'ethnographie. Dialectes du Maroc, Challamel, Paris, 1920.
Andrée Basset, la langue Berbère morphologie le verbe, étude des thèmes. (Collection du Centenaire de l'Algérie), 1929. In : Revue des 2tudes Anciennes, Tome 32, 1930, N°4.

إن هدف هذه الدراسات كان واضحًا، وهو معرفة لغات البلد من أجل تسهيل عملية غزوه، حيث استُعملت الدراسات اللغوية حول الأمازيغ من أجل التواصل معهم في مرحلة أولى، ثم استعملت إلى جانب دراسات وصفية حول العادات والتقاليد والطقوس الأمازيغية لأهداف سياسية أيديولوجية. فقد تضمنت الدراسات اللغوية حول الأمازيغ الكثير من الأفكار الاستعمارية. فمنذ احتلال الجزائر لاحظ الدارسون أن الأمازيغ- خاصة الطوارق- مازالوا يحتفظون بأبجدية خاصة لكتابة لغتهم، وهي الأبجدية التي يسمونها "تيفيناغ" (tifinar)، ولاحظوا أنها تتكون من عشر صوامت على غرار اللغة اليونانية واللاتينية القديمتين، ودعوا إلى تدريسها أنداك بالمدارس الجزائرية مما لها من دور في تسهيل مهمة فرنسا الإدارية والسياسية[٢١].

الغاية نفسها وضعتها فرنسا نصب أعينها بالمغرب، فقد لاحظ "هنري باصي" أن الأمازيغي في وجود حضارة متفوقة على حضارته، يمتلك قدرة عجيبة على

تملك لغة الأجنبي الغازي، لكنه فقط يُقلد ولا يُدمِج، فرغم الاختراقات اللغوية التي تعرضت لها الأمازيغية من قبل لغات أخرى مثل البونية والرومانية والعربية، فإنها مازالت حية يتكلمها ملايين الأمازيغ في شمال إفريقيا، وتوصل إلى نتيجة مهمة -في نظره بناء على الأبحاث الاثنوغرافية المنجزة - وهي أن الأمازيغي المزدوج اللغة لا يستعمل إحداهما اعتباطا بل يستعمل كل لغة في ظروف معينة، فعندما يتكلم العربية لا يعبر عن الأمور التي تختلج فؤاده، وهذا لا يرجع إلى كونه لا يتقنها، بل إن الفكر المعبر عنه بالعربية لا يشبه الفكر المعبر عنه بالأمازيغية، فبواسطة هذه الأخيرة فقط يعبر عن أحاسيسه الصادقة، إن "الأمازيغي ينطبق عليه المثل القائل: من يتكلم لغتين يمتلك روحين، إن الأمازيغي مزدوج اللغة يملك روحين: روح مصطنعة متأسلمة معربة، والأخرى داخلية تظل مخلصة لأعرافه واعتقاداته القديمة"[٢٢]. لكنه وقف عند حقيقة صادمة تتمثل في أن الأمازيغي وإن احتفظ بلغته وافتخر بها وسط قومه، فإنه في داخله يؤمن بأنها لغة محتقَرة، وهنا يأتي دور فرنسا، "فالشباب الأمازيغي المتعلم بمدارسنا يكتشفون أن لغتهم هي لغة مثل بقية اللغات، تتضمن قواعد معترف بها على الصعيد اللساني، مثلما هو الأمر بالنسبة للعربية. كما أن بربر البوادي المغربية يندهشون عندما يكتشفون أوربيا يتقن لهجتهم، إنه اندهاش مفاجئ، يجعله يثق في هذا المسيحي الأجنبي"[٢٣]، ويسترسل قائلاً: "إننا عندما نتكلم لغتهم يفقدون كثيرا من وسائل مقاومتهم، ويصبحون عزلا أمامنا، إنها الوسيلة المثلى لكسب قلوبهم"[٢٤]. إذن فتعلم الأمازيغية واستعمالها من قبل الفرنسيين، وتدريسها للأمازيغ، هدفه تسهيل الغزو وتعزيز التواجد الفرنسي بالمغرب.

ويحلل "هنري باصي" الأسباب التي تجعل الأمازيغ يتخلون عن لغتهم لصالح العربية، وخلص إلى كونها أسباب معقدة وكثيرة يتداخل فيها الديني (الإسلام والحج) والاقتصادي (العلاقات التجارية)، وبالتالي فكل محاولة لنشر الفرنسية وسط الأمازيغ وتعويضها بالعربية يقتضي دراسة هذه العوامل والعمل على الحد منها، ولاحظ أنه في الجزائر مثلا ونتيجة لإتقان الفرنسيين للأمازيغية من جهة ولهجرة العديد من أمازيغ الجزائر إلى فرنسا للعمل من جهة ثانية، فقد أصبح الكثير من الأمازيغ عوض إتقانهم للبربرية والعربية يتقنون الأمازيغية والفرنسية. مما جعله يطرح السؤال الجوهري الآتي "هل يمكن للفرنسية أن تعوض العربية كما عوضت هذه الأخيرة اللاتينية؟"[٢٥]. إن تحقيق هذا المسعى يستدعي دراسة اللغة والمجتمع الأمازيغي جيدا. وهكذا فخلال سنة ١٩٢٤ قام الكابتان "أوكستانبرنار"(Augustain Bernard) و"بول موسار"(Paul Moussard) بأول محاولة -حسب ما توصلت إليه- لوضع خريطة بينت توزيع المتكلمين بالعربية والأمازيغية في المغرب، وخلصا-بصفة عامة- أن الخريطة اللسانية تطابقت تقريبا مع الخريطة التضاريسية، ذلك أن سكان السهول في نظر الباحثان هم الناطقون بالعربية، وسكان الجبال هم الناطقون بالأمازيغية[٢٦].

كما لاحظا أن سكان المغرب حافظوا على لغتهم الأمازيغية أكثر من سكان تونس والجزائر، ومرد ذلك إلى أن المغرب لم يستقبل هجرات كبيرة للسكان القادمين من المشرق. فأول القبائل العربية لم تدخل المغرب إلا خلال القرن الثاني عشر ميلادي بإرادة من سلاطين المغرب، ولعبت الجبال كذلك دورا مهما حيث شكلت ملاجئ آمنة عن التأثير السياسي والاجتماعي "للغزاة"[٢٧]. ويرى الباحثان أن الدارسين عادة ما يستعملون كلمة بربر لنعث الساكنة غير العربية بإفريقيا الشمالية، لكن هذا الاسم في الحقيقة يضم ساكنة غير متجانسة ومختلفة عن بعضها البعض بشكل كبير، فاللغة الأمازيغية تتكون من لهجات عديدة لدرجة يجد الأمازيغ في جهة ما أنفسهم عاجزين عن فهم اللهجة الأمازيغية المميزة لجهة أخرى.[٢٨]

وعمومًا قسم الباحثان الناطقين بالأمازيغية إلى أربع مجموعات:

المجموعة الزناتية: وهي مجموعة ملوية، وضمت بني وارين وأيت سغروشن. وتتكلم بلهجة زناتة.

المجموعة الريفية: سكنت الإقليم الجبلي والمتوسطي بين جبالة وواد كرت شرقا، وحدث تراجع في هذه المجموعة تحت ضغط العرب. وتتكلم لهجة تاريفيت.

مجموعة "البرابر": يعد انتشارها أقل وضوحا وتحديدا. وتتكلم لهج تامازيغت، ولها أهمية عددية كبيرة جدا. ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات صغيرة:

١-أيت يوسي وبني مكَيلد في شمال الأطلس المتوسط.

٢-كتلة زمور وزايان

٣-البرابر بالمعنى الضيق أو الدقيق، وقبيلتهم هي أقوى قبيلة في المغرب، ويسمون ب"إيمازيغن"، ويتكونون من قسمين أساسيين هم: أيت عطا وأيت يافلمان في الأطلس الكبير وبالخصوص الغربي، وحدودهم الجنوبية التي تفصلهم عن الشلوح غير واضحة، فبعض القبائل يعتبرها البعض قبائل برابرة وآخرون يعتبرونها قبائل شلوح.

مجموعة الشلوح: لهم أهمية عددية تضاهي تلك التي تتوفر لدى البرابر، وتضم في غالبها المجموعة المسماة بمصمودة. وتتكون من كتلتين أساسيتين سكنت الأطلسين الصغير والكبير الغربي.[٢٩]

ويشير الباحثان إلى أن البصمات العربية واضحة أكثر في لهجة زناتة أكثر من لهجة البرابر والشلوح، لكن الملاحظ لديهما أيضا أن العربية في المغرب تأثرت باللهجات الأمازيغية، لكن ما يثير انتباههما هو أن كثيرا من الأمازيغ قد تخلوا عن لغتهم لصالح العربية[٣٠]. وهذا راجع إلى عدة عوامل فمن جهة الأمازيغ يحسون بنوع من الدونية تجاه اللغات الأخرى، كما أن لغتهم من جهة أخرى عاجزة عن التجريد والتعميم، إن لغة الأمازيغ " عملية، ومعقدة ومحسوسة، ومن تم فهي عصية عن كل تأمل علمي، وتراثهم الشفوي لا يسترعي سوى انتباه اللسانيين والمختصين في الفلكلور"[٣١].

أما بخصوص المقارنة بين العربية والأمازيغية والعلاقة بينها، فقد خلص الباحثان إلى كون العربية تمارس ضغطا على الأمازيغية، وتمتاز عنها بثلاث مميزات: إنها لغة مكتوبة، ولغة دينية، ولغة التجارة. وبالتالي فهي تضطلع بدور اللغة المشتركة المُمَثِّلة لحضارة قوية ومنظمة بالنسبة لمجموعة محلية ليست لديها لا وحدة لغوية ولا انسجام لغوي.[٣٢] ونبه الباحثان فرنسا لكون مهمتهم الحضارية بالمغرب والتي عبرها تم بناء الطرق والسكك الحديدية تشكل كابوسا للغة الأمازيغية، لكونها تسهل عملية انتشار العربية وسط الأمازيغ، ومن ثم يمكن للوحدة اللغوية إلى جانب الوحدة الدينية للمغاربة أن تهدد الوجود الفرنسي بالمغرب، وبالتالي يقترحان على سلطات الاستعمار العمل على توحيد اللغة الأمازيغية وتدريسها للأمازيغ وكتابتها لإشعار الأمازيغ بأهمية لغتهم.[٣٣]

درس الفرنسيون مختلف اللهجات الأمازيغية ليخلصوا إلى كونها مهددة لأنه من جهة الأمازيغ غير مؤهلين للوصول إلى وحدة لغوية، ومن جهة أخرى ساهمت العديد من العوامل الاقتصادية والثقافية والدينية في تعريب الأمازيغ. ولهذا يعد الدفاع عن الأمازيغ ولغتهم في نظرهم عملاً سياسيًا، وهو قبل كل شيء عمل مدرسي وإداري، وأن "الحماية الفرنسية قد حددت سياستها "الأمازيغية" وهي بصدد الانتقال من النظرية إلى التطبيق".[٣٤]

رابعًا: التاريخ

يقول عبد الله العروي: "اهتمت الإدارة الاستعمارية الفرنسية اهتماما بالغا بدراسة تاريخ المغرب القديم. إذ أن ولاة الجزائر والمقيمون العامون في تونس والمغرب الأقصى، أولو عناية خاصة بالحفريات، كما كانت إدارة الداخلية هي الساهرة على مصلحة الفنون الجميلة، فلا غرابة إذا وجدنا في البحوث التاريخية التي صدرت آنذاك آثارا واضحة للفكر الاستعماري"[٣٥].

كانت العناية بالتاريخ القديم ترمي إلى النيل من التاريخ الإسلامي بالمغرب، عن طريق الإيحاء بقرب زواله لصالح أوربا، مثلما زالت معالم الحضارات الفينيقية والقرطاجية والمسيحية، ثم التذكير بتاريخ المسيحية بشمال إفريقيا للإيهام باحتمال رجوعها، بالإضافة إلى اعتماد الإرث الروماني لإضفاء صبغة شرعية لوجود فرنسا بالمغرب.[٣٦]

وفي هذا الصدد يقول "بول مارتي": "إننا بعودتنا إلى هذه الأرض الأفريقية– بعد خمسة عشر قرنا من الغياب–نحمل لهذا الشعب الأمازيغي الذي أنجب طيرطوليان وأبيلي والقديس أوغسطين Saint Augustinوكثيرون غيرهم، نحمل له التراتب المنظم والواضح للحضارة اللاتينية"[٣٧]. إذن فتاريخ المغرب

القديم هو تاريخ روماني، وباعتبار فرنسا وريثة للإمبراطورية الرومانية فعملها في المغرب هو إعادة ربط الصلة بأرضهم وبالأمازيغ الذين كانوا جزءًا من الإمبراطورية الرومانية.

خامسًا: الدين

شغلت الدراسات حول المعتقدات الدينية للأمازيغ جزءا مهما من الكتابات الاستعمارية، وأكدت أغلب الدراسات الاستعمارية على ضعف إسلام الأمازيغ، وبالتالي إمكانية تغيير دينهم في اتجاه المسيحية، فمنذ سنة ١٩٠١ كتب "دوتي: "المغرب هو أكثر البلدان ملائمة لدراسة المعتقدات القديمة في الديانة المحمدية: فالينابيع والأشجار والأحجار خاصة مازالت تلعب دورا مهما في دين الشعب"[٣٨]، خاصة الأمازيغ الذين يشكلون أغلبية الساكنة المغربية، مما يعني أن الأهالي ليسوا كلهم مسلمون[٣٩]. ويرى "إدمون دوتي" أن الأمازيغ اضطروا مع وصول الإسلام إلى التحايل من أجل الحفاظ على معتقداتهم الوثنية، حيث مزجوا بين هذه الأخيرة وبين المعتقدات الإسلامية، حيث تمت أسلمة الطقوس الوثنية الأمازيغية، حيث يقول:" ففي الحين الذي تتغير فيه المعتقدات، يظل الطقس باقيا كتلك المحارات المستحثة للرخويات المنقرضة التي تساعدنا على تحديد العصور الجيولوجية. إن بقاء الطقس وثباته هو علة البقاء والرواسب التي نصادفها في كل مكان"[٤٠].وفي إطار دفاعه عن هذه الفكرة استشهد "دوتي" كثيرا بكتابات "إدوارد فيسترمارك"(Edward Westermarck) خاصة كتابه "البقايا الوثنية في الديانة المحمدية"[٤١]، الذي لم يترجم إلى الفرنسية إلا في سنة ١٩٣٥[٤٢]، فبحسب "فيسترمارك" توجد العديد من المعتقدات الوثنية تحت الغطاء الإسلامي. نفس الفكرة عبر عنها الباحث الإسباني "أنجلو غريلي" (Ghrili) إذ يرى أن الأمازيغ رغم اعتناقهم لمجموعة من الديانات التوحيدية، إلا أن شعائرهم الدينية تغلب عليها الأسطورة، عبر إيمانهم بالقوى الخارقة، وقوى الطبيعة المختلفة، إذ يقول:" إن كل تلك المعتقدات التي تبناها الأمازيغ تباعا، لم تتمكن من تحطيم العمق الديني البدائي الأمازيغي، أعني عبادة قوى الطبيعة وعبادة الجن المتحكمين في هذه القوى، وطبيعة الماء، والعيون والنار(...) والممارسات السحرية التي لا زالت سارية الاستعمال إلى الآن".[٤٣]. وهو نفس ما خلص إليه "إميل لاووست" في كتابه "كلمات وأشياء بربرية"(Mots et Choses Berbères)، فثلاثة عشر قرنا من الإسلام لم تنجح حسب هؤلاء الدارسين في أسلمة الأمازيغ بشكل تام، وما الأعياد الدينية التي يحتفل بها الأمازيغ إلا مناسبات للفرح[٤٤]. وذهبت مختلف الدراسات إلى إبراز كون الأمازيغ متشبثين بفكرة الدين أكثر من تشبتهم بالإسلام وبالتالي فلديهم "مرونة لاعتناق أي دين كيفما كان".[٤٥] ولقد كانت هذه الأفكار محور الدراسة التي قام بها القسيس "أنج كولر" (Ange Koller) تحت عنوان "محاولة حول روح الأمازيغي المغربي"(Essai sur l'esprit du Berbère Marocain) بحيث أكد على أن الأمازيغي "لا يعرف شيئا عن دينه، سواء باللغة العربية، أو لهجته الخاصة" ولذلك لا يجب أن نستغرب من كون الفرائض الدينية "مجهولة بالنسبة له أو ملغاة نهائيا، فهو لم يتشبع قط بالسنة الإسلامية، ولم ينل من الإسلام سوى بريق سطحي، ومراسيم بسيطة"[٤٦].

إن التنظيرات الفرنسية في مجملها اعتبرت إسلام الأمازيغ ناقصا وسطحيا، مستدلين على ذلك بكونهم يحتكمون إلى أعراف خاصة بهم عوض القرآن، ويتشبتون بمؤسساتهم القبلية، مع جهلهم باللغة العربية وإيمانهم بالسحر واعتناقهم لمجموعة من المعتقدات الخرافية،[٤٧] معتمدين في ذلك على دراسات سطحية متسرعة، فيها نوع من التعميم الذي لا يمكن إسقاطه على جميع الأمازيغ، وهي أحكام وقع أصحابها في أخطاء كثيرة تظهر جهلهم بالمجتمع الأمازيغي المتعلق بالإسلام، بشهادة مجموعة من الضباط الفرنسيين، فمثلا من خلال الدراسة التي خص بها القبطان سعيد كنون قبائل آيت أومالو وبلاد زايان، نقف على وجود ممارسة حقيقية للطقوس الإسلامية لدى هاته القبائل، بحيث أكد أن آيت أومالو مسلمون، يمارسون دينهم بصدق، فكل قرية تتوفر غالبا على مسجد تؤدى فيه الصلوات الخمس، وحتى الرُحل يخصصون خيمة وسط الدوار للصلاة وإيواء عابري السبيل، ويُدرس فيها الفقيه القرآن[٤٨]. كما أشار إلى وجود تنظيمات خاصة تشرف

على تسيير الشأن الديني لهاته القبائل، كما أنهم يتقاسمون النفقات الدينية فيما بينهم، فآيت اومالو يتحملون "برحابة صدر أي كلف ذات طابع ديني ويكنون كثيرًا من الاحترام والتقدير لرجال الزوايا والطرق"[٤٩]. وحسب صاحب كتاب "كباء العنبر" فبربر الأطلس مرتبطون بالإسلام، والقرآن "في صدور كثير منهم محفوظ، وعلى حقيقته من شفاههم ملفوظ، وكتاتيبه في المداشر والخيام، وهم به شديدو الغرام والهيام، ويشترطون الطلبة لمساجدهم لإقراء أولادهم القرآن، ويحلقون عليهم عند الفراغ من أشغالهم لتعلم الدين وبعض الأركان"[٥٠] ويشير أن مساجدهم في القرى والمدن في الصلوات عامرة، ويستفتون الفقهاء في أمور دينهم سواء ما تعلق بالعبادات أو الأحوال الشخصية من زواج وطلاق، مثل إخوانهم المغاربة بل هم في بعض الأمور الدينية أشد تمسكًا من غيرهم[٥١]. وهو الأمر الذي أشار إليه "لويس ماسينيون" حين اعتبر أن "إسلام الأمازيغ عميق جدًا، وأن عملية التهدئة مهدتهم للتعريب بشكل سريع"[٥٢]. وإذا رجعنا إلى التاريخ نجد أن مناطق الأطلس تميزت منذ العصر الموحدي على الأقل بوجود قضاة شرعيين بها. وهو ما ينفي ما روجت له بعض الكتابات الاستعمارية بخصوص ضعف إسلامهم وجهلهم لأمور دينهم، خالطين بذلك بين مظاهر التدين الشعبي، التي ليست حكرًا على الأمازيغ فقط، ومبادئ الدين الإسلامي.

خَاتِمَةٌ

نتيجة للمقاومة الشرسة التي واجه بها الأمازيغ الاستعمار الفرنسي، والتي امتدت على الأقل منذ سنة فرض الحماية على المغرب سنة ١٩١٢، إلى حدود سنة ١٩٣٤ مع استسلام قبائل أيت عطا بالجنوب الشرقي المغربي، جندت الإدارة الاستعمارية الفرنسية العديد من الباحثين العسكريين من أجل فهم تاريخ ومؤسسات هذا العنصر العرقي، وتم توظيف العلم لأهداف تتناقض مع مبادئه وغاياته ومنهجياته. فروجوا لأفكار مشوهة حول تاريخ الأمازيغ ولغاتهم ومدى تعلقهم بالإسلام، حالمين بإعادة " أمجاد" الفترة الرومانية بشمال أفريقيا ككل وليس المغرب فقط.

إن البحث في موضوع تاريخ الأمازيغ خلال الفترة الاستعمارية، مازال في حاجة إلى مزيد من الجهد العلمي المكثف، والاعتماد على الأرشيف الفرنسي، ووضع محتوياته في إطار سياق تاريخي مرتبط برغبة فرنسا في التحكم في التراب المغربي، وهذه العملية تستهدف بناء صورة "حقيقية" لما كان عليه الوضع في الماضي. وهذا لن يتم إلا في إطار طرح إشكاليات جديدة والتحرر من كل سيطرة أيدولوجية على العلم.

الاحالات المرجعية:

(١) سأستخدم مصطلح أسطورة بمعنى: "صورة مبسطة، غالبًا ما تكون وهما، تكونها مجموعة من الناس، أو تقبل بها، بشأن فرد ما أو واقعة، وتلعب دورًا حاسمًا في تصرف تلك المجموعة أو تقديراتها"
voir le mot Mythe dans **Le Nouveau Petit Robert**, Paris, 1993, p. 1465

(٢) يسميهم هيرودوت بالليبيين وسالوست بالجيتوليين والليبيين، واستعمل الحسن الوزان اسم الأفارقة، في حين يرى شارل أندري جوليان أن هذا الاسم الأخير أطلقه الرومان على سكان الشمال الشرقي من تونس. لمزيد من التفاصيل حول هاته التسميات أنظر كلا من:
-Gabriel Camps, **les Berbères Mémoire et Identité**, Editions Le Fennec, Casablanca, 2007, p. 52-64.
- شارل أندري جوليان، **تاريخ شمال إفريقيا**، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة، دار التونسية للنشر والتوزيع، ط١، تونس، ١٩٦٩، ص ٨.
- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، جزئين، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٨٣، ص٣٥-٣٦.

(٣) يرفض الفاعلون الأمازيغ اليوم هذا الاسم، ويعتبرونه اسما قدحيا ويتشبثون باسم إيمازيغن فقط.

(4) Georges-Henri Bousquet, **les Berbères: Histoire et institutions**, collection que sais-je, P.U.F, Paris, 1957.P. 8.

(٥) راجع عبد الرحمان ابن خلدون، **كتاب العبر وتاريخ المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، المجلد السادس، ص ١١٧، (نسخة الكترونية).

(٦) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، دار الثقافة بيروت، بدون تاريخ، ج ١، ص ٥٥.

(٧) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م س، ص ٣٤.

(8) Camps, **les Berbères...,** op cit, p.98.

(9) Ibidem.

(١٠) الوزان، م س، ص ٣٩.

(١١) محمد زنيبر، مادة البربر، **معلمة المغرب**، الجزء ٤، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ١٩٩١، ص ١١٣٠.

(12) Camps, op cit, p. ٤٢.

(13) Ibid, p. ٣٦.

(14) Ibid, p.٤٥.

(١٥) ابن خلدون، **كتاب العبر...**،م س، ص ١٢٠-١٢٦.

(١٦) نفسه، ص ١٢٦-١٢٧.

(١٧) نفسه، ص١٢٧.

(١٨) اعتبر كوتيي Gautier الأدارسة مستعمرين للمغرب، واعتبر تاريخ المغرب بعد الإسلام يبتدئ فقط مع المرابطين، راجع Emille Félix Gautier, **lepassé de l'Afrique du Nord, les siècles obscures**, Payot, Paris, 1937, p. 315.

(١٩) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ص ٤٧.

(٢٠) كلمة مستحاثة في اللغة العربية مشتقة من كلمة أحاثَ الأرضَ واسْتحاثَها أي أثارَها وطلبَ ما فيها واستحاثَ الشيءَ حرّكه، واستحاث الشيءَ استخرجه، وعلم المستحاثات هو علم استخراج ما في باطن الأرض من مطمورات.

(21) M. le commandant Rinn, « origine Berbères étude de linguistique », **in Congrès d'Alger**, Secrétariat de l'Association Française pour l'Avancement des Sciences, Paris, 1881, p. 10.

(22) Henri Basset,**Essai sur la littérature des Berbères**, Ancienne maison Bastide-Jourdan, Alger, 1920, p. 33-34.

(23) Ibid. p. 35.

(24) Ibid. p. 37.

(25) Ibid. p. 49.

(26) Augustain Bernard, Paul Moussard, « Arabophones et Berbérophones au Maroc », in **Anales de Géographie**, T33, N°. 183, 1924, sans lieu, p. 269.

(27) Ibid. p. 273.

(28) Ibidem.

(29) Ibid,p. 274-277.

(30) Ibid.p. 277.

(31) Ibid. p. 279.

(32) Ibid. p. 280.

(33) Ibid, p. 280-281.

(٣٤) المكي المالكي، "تطوير الاستعمار الفرنسي لأساليب غزوه للمغرب الوسط إلى حدود ١٣٤٩/١٩٣٠ (من المعاناة من عنف مقاومة الأطلس المتوسط إلى الانتباه إلى أمازيغيته)"، ضمن **مجلة تاريخ المغرب**، ع ٧ و٨، الرباط، ماي ١٩٩٨، ص ١٥٢.

(٣٥) عبد الله العروي، **المجمل..**، م س، ص ٤٧.

(٣٦) إبراهيم بوطالب، "البحث الكولونيالي حول المجتمع المغاربي في الفترة الاستعمارية حصيلة وتقويم"، ضمن **ندوة البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ١٩٨٩، ص ١٢٩.

(37)Paul Marty, **le Maroc de demain**, Comité de l'Afrique Française, Paris, 1925, p. 2o5.

(38) Cité par Giles Lafuente, **La politique Berbère de la France et la nationalisme Marocain**, l'Harmattan, Paris,1999 , p. 58.

(39)Ibidem.

(٤٠) ادموند دوتي، **السحر والدين في إفريقيا الشمالية**، ترجمة فريد الزاهي، منشورات مرسم، مطبعة أبي رقراق، الرباط، ٢٠٠٨، ص ٤١٥.

(٤١) تعتبر أطروحة البقايا الوثنية أهم فكرة لدى فيستر مارك ويعني بها تلك المعتقدات والطقوس القديمة والتي تم احتواء جزء منها من طرف الديانة الإسلامية، أما الجزء الآخر فقد بقي حاضرا ببساطة داخل معتقدات المسلمين رغم معارضة العلماء والفقهاء.

(42) Edward Westermarck, **Les survivances païennes dans la civilisation mahométane**, Payot, Paris, 1935.

(٤٣) أنجلو غريلي، **أسلمة وتعريب بربر شمال المغرب**، ترجمة عبد العزيز شهبر، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل، الرباط، ٢٠٠٩، ص ٢٠٠.

(44) Charles Robert Ageron,« la politique berbère du protectorat Marocain de 1913 à 1934 », in **Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine**, T18, N°.1, janvier-mars 1971, sur www.persee.fr, p. 52.

(45) Ibidem.

(46) Ange Koller, **Essai sur l'esprit du Berbère Marocain**, préface de Serge Barrault, Imprimerie Saint Paul, Fribourg, 1946, p. 267.

(٤٧) عبد الحميد احساين، **أصول سياسة فرنسا البربرية إلى غاية سنة ١٩٣٠**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٧، (مرقونة) ص ٤٩.

(٤٨) سعيد كنون، **الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زايان: المجال والإنسان والتاريخ**، تعريب محمد بوكبوط، منشورات الزمن، مطبعة بني ازناسن، سلا، ٢٠١٤، ص ٣٧.

(٤٩) نفسه.

(٥٠) أحمد المنصور، **كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر**، تحقيق محمد بن لحسن، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط١، مطبعة الكرامة، الرباط، ٢٠٠٤، ص ٩١.

(٥١) نفسه، ص ٩٤.

(52) Louis Massignon, « L'éléments arabes et foyers d'arabisation, leur rôle dans le monde musulman actuel », in **Revue du Monde Musulman**, Vol. LVII, Edition Ernest Leroux, Paris, 1924, p. 39.